

# مقدمة الطبعة الأولى

ترتبط الدبلوماسية في أذهان الناس بمعان متعددة إن كانت تدل على شيء فإنما تدل على ذلك التنوع الذي تنطوي عليه الدبلوماسية. فهي عند البعض تمثل هذا العالم الزاهي الحافل بالحفلات والمآدب والجو المعطر والذي يضم أناسا مرفهين يقضون حياتهم يتنقلون بين مدن الأرض العامرة، وهي عند البعض الآخر تعنى ذلك العالم الذي تحاك فيه الدسائس والمؤامرات وتدار الحروب ويخطط لها، وهي عند فريق ثالث لا ترمز إلى موضوع بقدر ما ترمز إلى نمط من الناس يتميزون بالذكاء والدهاء والقدرة على الخروج من المأزق، كما يتميزون فيما يصدر عنهم بالحرص والدقة والتحرج. أما المعنى الأخير، والأكثر موضوعية، وكذلك لا يطرأ إلا للقللة العليمة من الناس، فالدبلوماسية هي إدارة العلاقات الدولية بطريق التفاوض، أو هي فن إدارة العلاقات الدولية أو عملية تسيير شئون الدولة الخارجية، أو هي بشكل أكثر تحديدا أداة تنفيذ السياسة الخارجية أو فن إرجاد القوة كملجأ أخير. وفي نطاق هذا المعنى الأخير، وبشكل أكثر اتساعا وتحررا من التعريفات الأكاديمية، نستطيع أن نعتبر أن الدبلوماسية إنما تمثل تلك الجسور التي تقام بين الأمم والشعوب بالصبر والإصرار والدأب.



والحكمة كذلك، فى عالم مشحون بالأزمات والتوترات قد يصفو مناخه ويروق فى الصباح ولكنه يكفهر ويغيم فى المساء، وهذه الجسور التى تحرص الدبلوماسية على بنائها واستمرارها لم تعد اليوم قاصرة على ميدان واحد كما كانت فى الماضى وهو ميدان السياسة وعلاقتها التقليدية، وإنما تعدتها إلى ميادين أخرى أكثر تأثيرا فى حياة الشعوب وهى ميادين الاقتصاد والثقافة والعلوم والإعلام والسياحة وانتقال البشر، والطاقة، إلى آخر مكونات حياة العالم اليوم بما تتسم به من تعقد وتركيب. ومثل هذا التنوع فى اهتمامات ومجالات الدبلوماسية اليوم لم يكن قائما فى القرن الماضى مثلا حيث إنه نتاج هذا التحول الخطر الذى حدث فى تركيب العالم من عالم يضم خمسين دولة عند الحرب العالمية الأولى إلى عالم يضم مائة وخمسين دولة لكل منها مصالحها وارتباطاتها ومشاكلها، ثم إلى الثورات التى غيرت وجه العالم ابتداء من الثورات الاشتراكية إلى ثورة المستعمرات إلى ثورة العلم والتكنولوجيا.

لذلك ليس غريبا أن يقال أن الدبلوماسية بهذا المعنى إنما تحمل هموم العالم، وأن الدبلوماسى لم يعد ذلك الكائن المرفه وإنما أصبحت تشغله أمور وأحداث لم يكن زميله يفكر فيها أو يواجهها من قبل.

والدبلوماسية قديمة قدم الكهوف، فهى ترتد إلى تلك الحقبة السحيقة من الزمن حيث سئمت القبائل البدائية القتال الذى كان ينشب بينها بسبب النزاع حول مناطق الصيد أو حول مورد ماء واختطاف النساء وسرقة الماشية، وقد استولى على قبيلتين منها الذعر من أن يؤدى استمرار القتال إلى فناهما معا فرغبنا فى الصلح، غير أن منار الصعوبة كان يكمن فى كيفية تقديم المقترحات حول عناصر الصلح للطرف الآخر فليس أخطر من أن تتقدم نحو عدو مسلح حيث لا يحميك إلا النوايا الطيبة. وأخيرا هدى التفكير المتواصل إحدى الجماعتين إلى اختيار جماعة من رجالها ارتدوا زيا خاصا مزركشا أضفى عليهم مظهرا ساميا وقد نجحوا بمظهرهم هذا أن يرهنوا أنهم أصحاب رسالة سامية كما ان عليهم أن يمتلكوا من القدرات والمهارات ما يتمكنون به من إقناع الطرف الآخر فى السلام وتأمينه لقبيلتهم، وهكذا أنيط بهم القيام بأول نشاط دبلوماسى عرفته البشرية.

وقد كان اليونان يجندون قادتهم البارزين للمفاوضة حينما يتهددهم عدو من الخارج، وكانوا يعاقبونهم بالنفي حين تكون جهودهم غير مرضية، ورغم أن الرومان قد اعتمدوا على العمل المباشر أكثر من اعتمادهم على الكلام، إلا أنهم كانوا يلجأون إلى الدبلوماسية

أيضا، ويقال إنه إن لم تكن روما قد قدمت شيئا للدبلوماسية لكفائها أن قدمت فكرة قدسية المعاهدات. ومن الطبيعي أن تضمن روما، وهي في أوج عظمتها، معاهداتها كل الإمكانيات الممكنة.

وباستقرار مركز القوة في عصر النهضة وبدء استقرار المواصفات بين الشعوب، بدأ وضع إشارات مقننة للدبلوماسية، ولناخذ على سبيل المثال مسألة كالأسبوعية بين السفراء والمبعوثين في جلوسهم وركوبهم وتقديمهم، الأمر الذي دار حوله ملحقات ومباريات خلال القرن السابع والثامن عشر، وقد انتهت هذه المشكلة منذ قرن ونصف بفضل مؤتمر فيينا - ١٨١٥ - الذي قرر أن تكون أسبوعية السفراء وفقا لأقدميتهم في الوصول إلى البلد المعتمدين لديه.

غير أن التطور الحقيقي الذي لحق بالدبلوماسية والذي يكاد يصوغ وجهها المعاصر إنما كان نتيجة التغيرات العميقة التي حدثت في وسائل المواصلات وأساليب نقل المعلومات والأخبار، وإلى استقلال الشعوب وظهور سيادات وكيانات مستقلة وظهور حكومات ممثلة للشعوب، وانتشار التعليم، وبرز التنظيمات الدولية التي تضم شعوب العالم. والواقع أنه خلال القرن ونصف القرن الماضي لم يكن لشيء تأثير على الدبلوماسية وعلى أساليب عملها مثل ذلك الذي أحدثته التطور في المواصلات. فحين عقد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ لم يكن رجال هذا المؤتمر يتصلون بعواصمهم بشكل أسرع مما كان يفعله الرومان في بداية العصر المسيحي، ومنذ أقل من قرنين كان السفير الفرنسي يحتاج إلى شهرين ونصف شهر لكي يسافر من باريس إلى استكهولم، في الوقت الذي يستطيع السفير اليوم أن يتناول إفطاره في أثينا وغداءه في مدريد. وأن يكون في مكتبه بعد ظهر نفس اليوم، وقد تحقق للدبلوماسية فائدة من سرعة المواصلات من حيث سرعة نقل تقاريره إلى عاصمته، وعدد الأفراد والشخصيات الذين يمكن أن يتصل بهم في بلاده، وتلقى توجيهات ومواقف عاصمته إزاء حدث من الأحداث. وفي الزمن الماضي لم يكن للدبلوماسية علم كبير بالأحداث التي تجري في أطراف أخرى من الأرض، أما اليوم فهو يمتلك من المعلومات والأخبار عما يجري في أطراف العالم أكثر مما يستطيع أن يستوعبه.

ورغم أن التقدم في المواصلات قد قلل من تلك السلطة المطلقة التي كانت للسفير، إلا أن هذا لا يعني أن تأثيره في الأحداث ومشاركته في صنع قرارات بلاده من خلال تقييمه للموقف وتقديره لاتجاهات الأحداث قد انعدمت، ذلك أن التعقيد الذي ألم

بالعلاقات الخارجية والدولية المعاصرة ودقة العناصر التي تحكمها وتكوينها اليوم قد جعل الحكومات تعتمد بشكل متزايد على تحليل ممثليها للأحداث ورؤيتهم لها، وعلى ماذا يجب أن تكون مواقف حكوماتهم منها، ذلك أنه من العوامل التي تضيف قيمة على ما يديه من تقديرات هو أنه «هناك» وأنه «في» البلد الأجنبي وفي الموقع حيث تتاح له طرق لاحتها من التعرف والفهم لهذا البلد واستكشاف العناصر الفعلية لقوته، وضعفه، وإمكاناته، فإن عمله فيما يقول بسمارك «يتضمن التخاطب الفعلى مع الناس والحكم بدقة على ما يمكن لشخص آخر أن يفعله، والتقدير الدقيق لوجهات نظر الآخرين، وفي التقدير الدقيق لوجهة نظره» في كونه «في تداخل مع الناس، وهو ما يعنى أن يكون متحكماً في المناسبات وأن يتمكن من التأثير في الأحداث إن لم يستطع التحكم فيها.

ومن ظواهر عصرنا الأخرى التي كان لها تأثير بالغ على الدبلوماسية انتشار عقيدة الديمقراطية وبروز الشعوب وامتلاكها لأقدارها، فحين جلست القوى الأوروبية حول مائدة مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ لم يكن بينهم ممثل واحد للديمقراطية كما نفهمها اليوم، فقد كانت الدبلوماسية وممارستها بالنسبة لهذه القوى هي أمر من أمور الحكام، لذلك كانت من أخطر الاعتراضات على دبلوماسية الحكام هذه أن مجموعة من الرجال تستطيع أن تضع أمن ورفاهية أمة في خطر، وهو الانطباع الذي أكدته الحرب العالمية الأولى حيث ظهر أن المأساة كانت نتيجة هذا اللون من الدبلوماسية وغياب عنصر المشاركة الشعبية والتمثيل، وقد قيل عام ١٩١٨ «إن نظام السفراء القديم قد فشل كما لم يصبح موضع ثقة الشعوب، وسوف تصبح الدبلوماسية القديمة وهي دبلوماسية البلاط والطبقات العليا في نظر الشعوب سخيفة.

لذلك كان انتشار العقيدة الديمقراطية قد جعل على الدبلوماسية في تعاملها اليومي أن تتوافق مع رغبات الناخب وهو ما يعنى في النهاية الرأى العام، وقد يعكس ما قاله اللورد سترانج من أنه «في عالم أصبحت فيه الحرب هي مأساة كل إنسان وكابوس كل إنسان فإن الدبلوماسية تصبح اهتمام كل إنسان»، هذا التأثير العميق الذي تركته الديمقراطية على الدبلوماسية حيث أصبحت أكثر تعرضاً لضغوط الرأى العام وأذواقه، كما أنها فقدت تقاليداً الأرستوقراطية.

من هنا أصبحت الديمقراطية المفتوحة أحد عناصر الديمقراطية والثقة فيها في العالم كله، وقد بلغت المناصرة الشعبية لمفهوم الدبلوماسية المفتوحة القمة في نهاية الحرب الأولى

حين ظهر شعار «الاتفاقيات المفتوحة عن طريق علني»، وفي فضح الثورة الاشتراكية في روسيا للاتفاقيات السرية التي عقدها العهد القيصري، وقد ضمن مبدأ الاتفاقيات العلنية ميثاق عصبة الأمم الذي نص على أن تودع الدولة العضو سكرتارية العصبة نسخا من كل الاتفاقيات الدولية التي هي طرف فيها كما أصبح هذا المبدأ أيضا جزءا من ميثاق الأمم المتحدة.

إن سيادة العقيدة الديمقراطية وتأثيرها الذي رأيناه على مضمون وأساليب ممارسة الديمقراطية وكذا بروز قوة الرأي العام وأثره على صناعة القرارات والمواقف السياسية للحكومات، إن هذا يدفعنا إلى أن نتعرض لتطور حديث يرتبط بالدبلوماسية وهو ما أصبح يعرف «بالدبلوماسية الشعبية»، فهذه الدبلوماسية رغم أنها لا تحوى خصائصا ومستويات الدبلوماسية التقليدية الرسمية، إلا أنها تمثل إحدى الأدوات المباشرة والفعالة في ربط الشعوب وتحقيق التواصل بين الأمم، وهو ما يمكن أن يكون إحدى أدوات دعم ومساعدة الدبلوماسية الرسمية.

وتمارس هذه الدبلوماسية الشعبية على مستويات التكوينات والتنظيمات والاتحادات الشعبية مثل اتحادات الكتاب والفنانين والصحفيين والفرق الفنية والرياضية ووفود الشباب والعمال والمزارعين، ويرتبط بهذا الشكل الشعبي في الدبلوماسية ما تقوم به فئات الخبراء والفنيين الذين توفدهم دولة بلغت مستويات ناضجة في مجالات يحتاجها مجتمع آخر لم يتحقق له مثل هذا التقدم كخبراء الري والتربة وبناء الخزانات وتشديد الطرق وتدريب الكادرات الفنية، وهذه الفئات لو حققت رسالتها لتركت تأثيراً ملموساً في الحياة اليومية للمجتمعات ربما فاق في تأثيره التأثير الذي تصنعه الدبلوماسية التقليدية، إلى جانب التطور الذي أحدثته أساليب المواصلات الحديثة وانتشار العقيدة الديمقراطية هناك، كذلك التطور الجديد الذي تُحقق فيما يسمى الآن «دبلوماسية المؤتمرات» أو «الدبلوماسية المتعددة الأطراف» و«الدبلوماسية العلنية» كما أطلق عليها «الدبلوماسية البرلمانية».

ويعتبر التنظيم الدولي القائم والمتمثل في الأمم المتحدة أكثر النماذج تمثيلا لهذا الشكل من الدبلوماسية حيث يضم هذا التنظيم جميع دول العالم بعد أن تحقق الاستقلال لعديد من شعوب المستعمرات وبروز كياناتها الدولية وتملكها لإرادتها وتطلعها لأن يكون لها دور في العالم الذي قام بعد الحرب العالمية الأولى وعرف بعصبة الأمم حينما لم يكن يضم سوى خمسين دولة، بمستواه اليوم في الأمم المتحدة التي أصبحت تضم ١٥٨ دولة، يكفي أن نلاحظ هذا الفرق كي ندرك أهمية هذا التنظيم في تمثيل الرأي العام الدولي.

وباعتبار مجموعة القيم والأهداف التي أرساها ميثاق هذه المنظمة الدولية كأساس تقوم عليه علاقات دولها، فإن أحكام هذا الميثاق تستهدف القضاء على شريعة الغاب في العلاقات الدولية وإلى أن تمارس كل دولة دبلوماسية لها لا في إطارها الفردي وغاياتها الضيقة المحدودة وإنما في نطاق الهدف العام للدول الأخرى الأعضاء في العائلة الدولية غير أن مجموعة القيم هذه ربما لا تتعدى في كثير من المواقف المستوى النظري حيث تدخل مصالح وصراعات القوى وتعكس أهداف المنظمة الدولية وتسمى إلى تحويلها إلى آراء لخدمة أهدافها الذاتية.

ورغم هذا فإن دبلوماسية المنظمات الدولية هي أقرب الدبلوماسية إلى الرأي العام وإلى مزاجه بحكم العلنية التي تسود أعمالها وبحكم أن الوفود وهي تعمل في نطاق هذه الدبلوماسية تعلم أنها تخاطب الرأي العام الدولي، ولذلك فقد شاركت هذه الدبلوماسية بقسط كبير في زيادة الوعي لدى الرأي العام الدولي وحساسيته لمشكلات العالم وأزماته، كما حقق اتصالا مباشرا بين شعوب العالم من خلال مشاركتها في الحياة الدولية.

ونظرا لتعدد وتعدد أوجه العلاقات الدولية اليوم وللعناصر المكونة لنشاطات الشعوب وخاصة التي حققت استقلالها حديثا وتتطلع إلى أن تبنى من جديد هيكلها الاقتصادي والاجتماعي الذي يفتقر في بنائه الراهن لعديد من المقومات الأساسية، وكذلك إلى بروز الهوية الحضارية التي تفصل بين الشعوب المستقلة حديثا وبين تلك التي حققت مراحل نموها الاقتصادي والاجتماعي، نقول أن هذا دفع دبلوماسية المنظمات الدولية إلى أن لا تقتصر في نشاطها على المجال السياسي وحده وإنما امتد ليشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والعلمية والعمالية ومجالات الصحة والطيران والبريد والمواصلات والطاقة النووية واستخداماتها السلمية.. إلخ. وتبلور هذا النشاط فيما يعرف بالوكالات المتخصصة وعلى الرغم من المثل التي تستهدفها هذه الأجهزة والوكالات في رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي للشعوب النامية، إلا أن واقع هذه الوكالات يجعلها محدودة الأثر بحكم افتقارها إلى الإمكانيات الفعلية لتحقيق أهدافها إلا أن ثمة أملا قائما في أن يتحقق في يوم ما الاتجاه الذي يمكن أن يمثل بحق دعما لدبلوماسية المنظمات الدولية في هذا المجال الحيوي والهام بالنسبة لقضية أساسية تنجح لأن تصبح من أهم مشكلات البشرية، ونعني بها قضية الشعوب واجتمعات المتخلفة، بأن توجه المساعدات التي تقدمها القوى والبلاد المتقدمة إلى البلدان النامية من خلال وعن طريق المنظمة الدولية بشكل يحقق التنسيق والتوجيه المثمر والرشيد لهذه المساعدات من جهة أخرى من الشروط والضغوط والاعتبارات السياسية التي ترتبط بها.

وقد حققت دبلوماسية المنظمات الدولية تقدما محسوسا فى مجال إبراز نمط جديد من الدبلوماسية، هم ما يعرفون بالدبلوماسية الدولية. وهى العناصر التى وإن كنا لا نستطيع القول أن أفرادها تخلوا عن انتماءاتهم القومية وولاءاتهم الوطنية، إلا أن طبيعة العمل الذى ارتبطوا به وسع من اهتماماتهم وأفقهم وأكسبهم العقلية الدولية التى استطاعت أن تحتوى وأن توفق بين ولاءاتها القومية وبين ولاءاتها الدولية وأن ترعى مصالحها القومية من خلال منظور دولى أعم.

وتعرض الدبلوماسية البرلمانية إلى انتقادات تبدو عند اختبارها فى التطبيق العملى واقعية، وأبرز هذه الانتقادات أن أعمال هذه الدبلوماسية تثقلها فى النهاية صراعات ومصالح بعض القوى الكبرى التى تعمل على أن تجتذب مجموعات عديدة من دول المنظمة الدولية بحكم الارتباطات التى تربطها بها لكى تدعم وتبرر بها مواقفها وأهدافها. أبعد ما تكون عن أهداف المنظمة الدولية، كما يقول منتقدو هذا الشكل من الدبلوماسية أنها تقوم على الدعاية والإعلان والاستهلاك الخلى، بل والتشهير فى بعض الأحيان أكثر مما تقوم وتعتبر عن نوايا حقيقية، ويتباكى دعاة الدبلوماسية التقليدية بمراسيمها وقواعدها وقيمها الصارمة على أساليب التعامل الدبلوماسى فى نطاق الدبلوماسية البرلمانية، ويشيرون إلى رفع خروشوف لحدائه فى وجه الإمبرياليين وهو يخطب فى الدورة الخامسة عشرة للأمم المتحدة.

غير أنه أيا كان النقد الذى يوجه إلى دبلوماسية المنظمات الدولية وعناصر النقص التى تبدو فى عملها والتى هى فى الواقع انعكاس للمتناقضات الدولية القائمة إلا أن هذا الشكل من الدبلوماسية قدم فى الواقع منبرا عالميا. تعرض من فوقه مختلف أقسام الرأى العام العالمى صوتها وتعتبر عن قضاياها ونظراتها فى مشكلات العالم، وخلال الأزمات التى تهدد بالانفجار يكفى هذه الدبلوماسية أن تكون مجالا للتفاوض السياسى وفرصة لأصوات التعقل أن ترتفع، وهو ما يمثل فى الواقع القنوات التى يمكن أن تتسرب من خلالها الضغوط والتهديدات وتبعد عن نفسها فى صورة جدل ونقاش يبرر خلاله النزاع.

وقد تحقق للدبلوماسية أكثر أشكالها حداثة ونعنى بذلك ما أصبح يعرف باسم «مؤتمرات القمة».

ورغم أننا نستطيع أن نستدل على نماذج تاريخية لهذا الشكل من الدبلوماسية، مثل

التقاء نابليون والإسكندر الأول إمبراطور روسيا عام ١٨٠٧، إلا أن هذا الشكل لم يتبلور إلا منذ الحرب الثانية، وبدأ في سلسلة الاجتماعات واللقاءات التي عقدها رؤساء دول وحكومات، وقد ارتبطت هذه الاجتماعات ببروز مسائل ومشاكل في العلاقات الدولية أو الإقليمية مما يستوجب معالجتها عن طريق الرؤساء، وأن هذا لا يعنى عودة إلى دبلوماسية الحكام الأرستوقراطية.

ومن نماذج هذه المؤتمرات مؤتمرات طهران ويالتا وبوتسدام التي عقدها رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وإنجلترا خلال الحرب العالمية مع ألمانيا النازية، ومؤتمر جنيف الذي عقد عام ١٩٥٥ وضم رؤساء حكومات الدول الأربع الكبرى، وكذا مؤتمر القمة الذي عقد في باريس عام ١٩٦٠ ثم اجتماع جلاسبورو بين الرئيس الأمريكي جونسون والمستر كوسيجين رئيس الورا السوفيتي عام ١٩٦٨، وكذلك مؤتمرات القمة لرؤساء وحكومات البلدان العربية، والإسلامية، ولقاءات القمة لرؤساء بلدان عدم الانحياز ومؤتمرات القمة الأفريقية، ثم ما عرف بعصر مؤتمرات القمة الأمريكية السوفيتية الذي ارتبط بما عرف بسياسة الوفاق بين القوتين والذي تبلور في أوائل السبعينات حيث انعقدت مؤتمرات القمة الأمريكية السوفيتية: قمة موسكو في يونيو - يوليو ١٩٧٢، وقمة واشنطن عام ١٩٧٣، ثم قمة موسكو عام ١٩٧٤، بين الرئيس الأمريكي نيكسون والزعيم السوفيتي بروجينيف، ثم اجتماع قمة فلاديفوستك في الاتحاد السوفيتي في نهاية عام ١٩٧٤، بين الرئيس الأمريكي فورد وبرجينيف. وأخيرا اجتماعات قمة جنيف (نوفمبر ١٩٨٥)، وريكافيك (١٩٨٦)، وواشنطن (ديسمبر ١٩٨٧) وموسكو (يونيو ١٩٨٨) بين ريجان وجورباتشوف. فضلا عن اجتماعات القمة المنتظمة بين رؤساء دول حكومات التحالف الأطلنطي واليابان.

إن هذا الشكل من الدبلوماسية إنما يحمل عدة دلالات أبرزها أن العلاقات الدولية بشكل عام قد أصبحت على درجة من الخطورة والتعقيد مما يستدعى أن يتناولها الرؤساء أنفسهم، وتعنى ضمنا أهمية العمل الدبلوماسي ليصبح من اختصاص الرؤساء، ويصبح كل رئيس هو وزير الخارجية الفعلي، ولا يعدو منصب وزير الخارجية أن يكون رئيسا للجهاز الدبلوماسي المكلف بتنفيذ خطوط السياسة الخارجية التي يضعها الرؤساء. وإن كان الأمر يختلف في بعض الحالات بشكل يعتمد على قوة وزير الخارجية كما كان الحال مثيلا مع هنري كيسنجر الذي يساهم بشكل متواز مع الرئيس الأمريكي نيكسون في صياغة مفهوم السياسة الخارجية الأمريكية وممارستها.

غير أنه بقدر الأهمية التي تحيط باجتماعات القمة قدر الإحباط الذي قد ينشأ عنها، ذلك أن مثل هذه الاجتماعات تتم عادة وسط اهتمام بالغ من الرأي العام حيث يتوقع منها نتائج تستوي مع أهمية الرؤساء وإمكانياتهم فى الحسم والتقرير، فإذا ما جاءت نتائج مؤتمرات القمة على عكس هذا التوقع، فإن الإحباط يكون نمطيا، وهو ما ينعكس على القضية أو المشكلة موضوع البحث والتداول، من أجل هذا فإن الإجماع هو على ضرورة الإعداد الجيد جدا لمثل هذه المؤتمرات بشكل يصبح فيه مضمونا توصلها إلى نتائج إيجابية قد لا تكون بالضرورة مثالية أو تعالج بشكل مطلق المسائل موضع البحث وإنما على الأقل تحقق تقدما فيها. فى مؤتمر القمة الأمريكى السوفيتى فى موسكو - يونيو عام ١٩٧٢ - والذى دشن سياسة الوفاق بين القوتين، جاء انعقاده بعد أن كان قد اتفق تقريبا على الاتفاقية الأولى للحد من الأسلحة الاستراتيجية - سولت ١ - والتي شكلت أكبر إنجازات هذا المؤتمر.

بالإضافة إلى هذه الأشكال التي اكتسبتها الدبلوماسية فى تطورها المعاصر، فثمة تطور آخر لحق بالدبلوماسية وتبلور فيما أصبح يعرف بدبلوماسية التنمية - Development Diplomacy - ووفقا لهذا الشكل الجديد لم تعد الدبلوماسية قاصرة على نطاقها التقليدى من تتبع والاهتمام بالشئون والأحداث السياسية، أو على الأكثر بالشئون والعلاقات التجارية، بل تعدت ذلك لتشمل الاهتمام اليومى، الذى يكاد يأخذ كل وقت الدبلوماسية وأجهزتها وأفرادها، بمجالات الاقتصاد بفروعه المختلفة من صناعة وزراعة وتجارة، والعلوم والتكنولوجيا وإنجازاتها، وشئون الطاقة، والبيئة، والرياضة، والفنون، والهجرة. إذا كانت دبلوماسية العالم المتقدمة قد تأثرت بهذا المفهوم الجديد بحكم تزايد حجم علاقاتها الشانية وتنوعها، فإن هذا المفهوم يكاد يتطابق اليوم مع دبلوماسية العالم الثالث ودوله التي يتزايد فيها الارتباط بين أهداف وممارسات سياستها الخارجية، وبين خدمة برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها، الأمر الذى فرض على أجهزة العمل الخارجى فيها أن تكون مسنولة عن توفير الإمكانيات وظروف نجاح هذه البرامج بما توفره لها من زيادة فى التبادل التجارى، وتشجيع الصادرات، وجذب للاستثمارات، ونقل لمستويات العالم والتكنولوجيات التي تحتاجها وتتفق مع ظروفها. وتشجيع السياحة، ورعاية مصالح أبنائها المهاجرين فى الخارج وربطهم بالوطن الأم.

وقد اكتسب مفهوم دبلوماسية التنمية أبعادا أخرى بالنسبة لدول العالم الثالث نتيجة

لنشوء قضايا أصبحت تمثل أهمية متقدمة بالنسبة له مثل قضايا الديون الخارجية، وأسعار المواد الأولية، ومشكلات الطاقة، والغذاء، والمياه، والسعى لإقامة نظام اقتصادى دولى جديد، والحوار بين الشمال والجنوب، الأمر الذى أصبح يشكل جانبا كبيرا من اهتمامات الأجهزة الدبلوماسية للعالم النامي وأفرادها واشتراكهم فى المؤتمرات والتجمعات التى تناقش هذه القضايا، سواء كان هذا فى نطاق الأمم المتحدة ووكالاتها، أو فى نطاق التجمعات الإقليمية مثل منظمة الوحدة الأفريقية، أو مجموعة عدم الانحياز، أو المؤتمر الإسلامى، أو الجامعة العربية.

ومن الطبيعى أن يلقى هذا التعدد فى الاهتمامات ومجالات العمل التى تتضمنها دبلوماسية التنمية، مسؤوليات ومهام جديدة ومضاعفة على الأجهزة الدبلوماسية والدبلوماسية المعاصر، فهو مطالب بأن يكون على وعى والملم مستمر بالتطورات فى مجالات الاهتمام الجديدة سواء فى بلده أو فى البلد المعتمد لديها وما لدى بلاده منها وما تحتاجها، كما لم تعد اتصالاته ومقابلاته ومعارفه قاصرة على مؤسسات الدبلوماسية التقليدية مثل وزارات الخارجية وإنما امتدت إلى مؤسسات ووكالات وشخصيات خارج هذا النطاق تغطى تقريبا كل فروع الحياة.

ومثل هذه المسؤوليات الجديدة هى التى دفعت الأجهزة الدبلوماسية لأن تبدى اهتماما بتعميق الفهم والوعى بهذه المسؤوليات وبالارتباط العضوى بين أهداف السياسة الخارجية والعمل الداخلى، ذلك من خلال تنظيم الندوات وحلقات النقاش، والدورات التدريبية المتقدمة، وأن تصوغ برامجها التدريبية المنتظمة بشكل يتفق مع هذا التطور فى العمل الدبلوماسى.

كان هذا باختصار شديد التطور الذى حدث فى مجال الدبلوماسية وأعطى لها صورتها المعاصرة التى تتميز فى كثير من أشكالها ومضمونها عن صورة الدبلوماسية الكلاسيكية غير أن هذا لايعنى أنه ليس ثمة مقومات للدبلوماسية الكلاسيكية، ما زلنا نجد لها فى الدبلوماسية الحديثة.

فمن ناحية الشكل فإنه رغم انتفاء المراسم الباهرة التى ارتبطت بالدبلوماسية القديمة مثل استقبال السفراء على الحدود بإطلاق الدافع وإرسال العربات المذهبة والخيول المطهمة فى حفلات تقديم السفراء أوراق الاعتماد، وتميز تبادل الزيارات والحفلات ببعض المبالغات

مثل حمل السيوف الثقيلة وارتداء الملابس المزخرفة، على الرغم من انتهاء عصر هذه الأساليب، فإن كثيرا من تقاليد الدبلوماسية ومراسمها مازالت باقية ومحفوظة بأغلب مظاهرها الأصلية، فما زال من عناصر العمل الدبلوماسي الأساسية توجيه الدعوات وإقامة الحفلات وما زال يحكم هذه الحفلات نظام الاسبقيات والألقاب، وقد حاولت الدبلوماسية السوفيتية في أول عهد الثورة أن تتخطى مراسم وتقاليد الدبلوماسية إلا أنها عادت والتزمت بها.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن التقدم الذى تحقق فى مجال المواصلات قد أثر على مهمة الدبلوماسية، إلا أننا لمنا فى نفس الوقت أن الوضع المتميز للدبلوماسى كمراقب ومحلل للأحداث والتطورات التى تجرى فى البلد المعتمد لديها يجعل أحكامه وتقاريره ذات تأثير هام على قرارات ومواقف حكومته، بل إنه فى بعض المواقف ما زال السفير رغم سهولة اتصاله بعاصمته يواجه بمواقف وأزمات ليس لديه عنها سوى تعليمات غامضة أو ليس لديه تعليمات على الإطلاق، الأمر الذى يستدعى منه قرارا ومبادرة شخصية منه. وحتى مع توفر تعليمات حكومته فإن النتائج التى تتحقق عنها إنما تعتمد فى جانب كبير منها على ما يتميز به السفير من لباقة فى عرض وتقديم هذه التعليمات إلى الحكومة المعتمد لديها.

كذلك إذا كان عهد الدبلوماسية السرية التى تجرى مناقشتها واتصالاتها وتتم اتفاقياتها داخل إطارات مغلقة بعيدة عن مشاركة الرأى العام أو درايته بها، إذا كان هذا العهد قد انقضى، إلا أننا ما زلنا نجد حتى الآن أن جانبا من الاتصالات الدبلوماسية وخاصة حول تلك الأمور الخطيرة وذات التأثير فى علاقات الدول إنما تتم فى نطاق كبير من السرية والتكتم حرصا على هذه الاتصالات من تأثيرات أدوات الإعلام والدعاية وما تخلقه عادة من ظروف قد تكون ذات تأثير سلبي على سير الاتصالات وخاصة فى مراحلها الأولى، وحتى فى نطاق الأمم المتحدة وهى أكثر المنابر علانية فى العمل الدبلوماسى فإن الكثير من الاتصالات تتم بين الوفود فى نطاق من السرية حتى يمكن التوصل إلى نقاط اتفاق بين أطراف الاتصالات يمكن الإعلان عنها.

وكما أن الدبلوماسى الناجح اليوم هو الذى يستطيع أن يعبر عن وجهات نظر بلاده وينشر أفكارها ويدافع عنها، كذلك كان الأمر فى الدبلوماسية القديمة، فكما روى السفير الهندى البارز بانيكار، فقد وصف مبعوثنا هنديا خاصا إلى بلاط أجنبي مهمته

كالاتى: «سوف أتوجه إلى بلاط كايرافا لكى أعرض قضيتنا فى أحسن وجه، ولكى أحاول أن أجعلهم يتقبلون طلباتنا، فإذا فشلت جهودى وأصبحت الحرب حتمية فسوف يظهر للعالم أننا على صواب وأنهم على خطأ حتى لا يسئ العالم الحكم بيننا». فى هذا التعبير فى الواقع تكمن كافة العناصر المكونة للمهمة الدبلوماسية كما هى قائمة اليوم.

إن الزمن والعادات وظروف وأوضاع وعلاقات العالم قد تغيرت ولكن صفات ومكونات الدبلوماسية الناجح لم تتغير فالدبلوماسية فى الواقع لا تعدو أن تكون مهنة يحتاج ذلك الذى يمارسها بنجاح إلى التدريب والخبرة حاجته إلى الاستعداد ، فمن الأمور الجوهرية مثلا أن يكون لدى الدبلوماسى الناجح المعرفة والفهم للشعب الذى يعمل بينه ويعيش ويسعى إلى أن ينقل صورته إلى بلده، هذا الفهم إنما يتسع ليشمل حضارته وتقاليده، ولغته ومشاكله وتطلعاته وتحيزاته ومخاوفه. إن الدبلوماسية التى لا تراعى توفر هذه المكونات فى أفرادها إنما تعرض نفسها لكثير من الثغرات.

إن السير هارولد نيكلسون<sup>(١)</sup> يعتبر أن دبلوماسية القرن الخامس عشر والسادس عشر كانت تتطلب فى الدبلوماسى خصائص رئيسية: أن يبدو طبيعيا، وأن يكون ودودا، وأن يمتلك المعرفة والثقافة الواسعة وأن يكون صبورا قادرا على الصمود فى المفاوضات ممتلكا لقدرة الماطلة والتسويق، كما يجب أن يكون غير قابل للاستثارة، قادرا على أن يتلقى الأنباء السيئة دون أن يهتز، متسامحا تجاه ما قد يتصوره أنه حماقة وتجاهل من حكومته ، أما حياته الخاصة فيجب أن تتصف بالزهد والترفع حتى لا يترك ثغرة لأعدائه. إن هذه الصفات التى كانت مطلوبة فى دبلوماسى أمس وما زالت مطلوبة فى دبلوماسى اليوم، إنها صفات العقل الذكى ، والقلب النبيل.

بهذا التصور للدبلوماسية: معانيها، أصولها، التطورات السياسية والدولية والعملية التى

(١) Niclson' Harold دبلوماسى بريطانى ومؤرخ الدبلوماسية الشهير. التحق بوزارة الخارجية البريطانية عام ١٩٠٩، وتقلد فيها عددا من المناصب حتى اعتزل السلك الدبلوماسى عام ١٩٢٩ لكى يتفرغ للسياسة والتأليف الذى برز فيه بأعماله التى تنوعت ما بين الرواية، وكتابة السير، والسياسة، والتاريخ. من أبرز أعماله عن الدبلوماسية كتابه الذى يعتبر مصدرا رئيسيا فى الدبلوماسية: Diplomacy - وصدر لأول مرة عام ١٩٣٩ وكان من الدقة والموضوعية بحيث جعل وزارة الخارجية السوفيتية تلجأ إلى ترجمته وتوزيعه على أعضائها رغم أن مؤلفه غريبى،

- The evolution of diplomatic method (1954).

- The evolution of diplomacy (1966).

أثرت في طبيعة الدبلوماسية، والأبعاد والأشكال الجديدة التي اكتسبتها نتيجة لهذا التطور، والمهام الجديدة للوظيفة الدبلوماسية، وصفات الدبلوماسي الأساسية، ومكوناته لكي يتعامل مع هذا التطور في الوظيفة الدبلوماسية وخاصة إذا كان من دول العالم الثالث، بهذا التصور العام، أقدمت على تقديم هذه الفصول ونقلها إلى العربية بهدف تفصيل وتاصيل جوانب الدبلوماسية هذه. وفصول الكتاب مختارة من كتب حديثة عن الدبلوماسية يعالج كل منها جانبا هاما من الجوانب التي تشكل الدبلوماسية وخاصة في تطورها ووجهها المعاصر، كتبها دبلوماسيون ذوو خبرة طويلة وعريضة في العمل الدبلوماسي فضلا عن امتلاكهم لأساس نظري واضح، ومن هنا جمعت عروضهم ما بين الخبرة النظرية والعملية ومن هنا كان تميزها.

**والفصل الأول طبيعة الدبلوماسية وبدائلها مأخوذ عن كتاب للدبلوماسي البريطاني Adam Watson صدر تحت عنوان: Diplomacy, The Dialogue between Nations** وفي هذا الفصل يعالج الدبلوماسية على أنها حوار بين الأمم وأداة المجتمع الدولي في إدارة علاقاته، وكعملية متمدينة تقوم على الوعي واحترام أمة لمصالح الأمة الأخرى، كما يبين الترابط والتداخل بين الكيانات السياسية وما يستلزمه هذا من حوار رشيد، وأن هذا الحوار، والجهاز الذي يدار به، وشبكة القواعد والاتصالات والمؤسسات، وقواعد السلوك التي تطورت عنها، إنما تشكل جوهر الدبلوماسية. أما البديل عن الدبلوماسية فهو اختفاء نظام الدول المستقلة وقيام حكومة عالمية فيدرالية الأمر الذي لا يستبعده انصارها باعتبار أن كل البشرية الآن هي إلى حد كبير تمثل مجتمعا واحدا يعتمد بعضه على بعض أكثر من المجتمعات السابقة، وحيث إنه في العصر النووي وعصر الانجاعة فإن الاستقلال والسيادة المطلقة أصبحت لا تحمل نفس معانيها السابقة وظهر مفهوم الاعتماد المتبادل: Interdependence.

**أما الفصل الثاني الذي تناول أداتين من أدوات الدبلوماسية وهما كتابة التقارير- Report- ing والمفاوضات Negotiations فقد أخذ عن كتاب الدبلوماسي البريطاني الشهير همفري تريفيليان، الذي عمل سفيراً في مناطق عديدة وهامة مثل الشرق الأوسط، والاتحاد السوفيتي، والصين، وله أعمال متميزة عنها، وصدر الكتاب تحت عنوان Diplomatic channels وفي الجزء الخاص بالتقارير، سواء كانت في شكل التقرير التقليدي المفصل أم في شكل برقيات، يبحث ما تتطلبه كتابتها من عناصر يركز فيها على الأمانة، والدقة، والوضوح، والبعد عن التحيز، والحذر والاقتصاد وخاصة في كتابه البرقيات. أما عن المفاوضة فهو يؤكد على ضرورة السفير وأعضاء سفارته في الإعداد والمشاركة فيها بعد**

الانتهاء منها، كما يروى خبراته في مفاوضات هامة قام بها، ويوصى بضرورة دراسة المناهج الوطنية وخصائصها في التفاوض.

أما الفصل الثالث فهو مستمد من كتاب صدر تحت عنوان: The Modern Ambassador. The Search and Challenge والكتاب هو مجموعة البحوث التي أقيمت في ندوة نظمها The Institute for the Study of Diplomacy التابع لجامعة جورج تاون - وموضع تركيز هذه الندوة، ومن ثم فصول الكتاب، هو مناقشة التساؤل الذي شاع مع التقدم السريع في وسائل المواصلات والاتصالات المباشرة بين الحكومات والرؤساء ووزراء الخارجية ومستويات عديدة أخرى من المسؤولين، حول دور السفير وهل هو ما زال جوهريا أم لا. واتصالا بهذه النقطة المركزية ناقش الذين ساهموا في هذا الكتاب المهام الجديدة التي تواجه السفير اليوم وما إذا كانت تتطلب نوعا مختلفا من الدبلوماسيين عليهم أن يعنوا باهتمامات جديدة مثل شئون الطاقة، والاتصال الواسع بين البشر، ونقل التكنولوجيا، والمياه، والإرهاب، والمخدرات... إلخ

ومما يميز هذا الكتاب، الخبرات الوطنية المتعددة التي يعرضها، فالمشركون فيه هم وزراء خارجية وسفراء سابقون لأقطار مثل ألمانيا الغربية، والنمسا، واليابان، والولايات المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا. وفي هذا قدم Bernolt Vo Staden - الذي عمل لمدة ٦ سنوات سفيراً لألمانيا الغربية في واشنطن - تصوره عن النماذج والمسئوليات المتغيرة للسفير، كما عرض John Halstead الذي عمل سفيراً لكندا لدى ألمانيا الغربية والناتو، رؤيته لـ «سفير اليوم»، وقدم Kingman Breugter الذي كان رئيساً لجامعة ييل قبل أن يعمل سفيراً لأمريكا لدى بلاط سان جيمس - قدم نصيحته لسفير جديد وقد تضمن أحد الفصول التي نقلناها من هذا الكتاب فحصاً ومناقشة «للمتطلبات والمؤهلات» الواجب توافرها في السفير. في هذا ساهم Karl Gruber الذي شغل لمدة ٩ سنوات منصب وزير خارجية النمسا وسفير لبلاده في الولايات المتحدة وأسبانيا وسويسرا وألمانيا الغربية بمقالته عن «الصفات المشتركة للسفراء الجيدين» ، كما ساهم كل من Francois de Laboulsye سفير فرنسا في البرازيل واليابان، والولايات المتحدة، Jean Laloy الدبلوماسي والأكاديمي الفرنسي، بورقة مشتركة عن «مؤهلات سفير». أما Egiolio Ortona الذي عمل ممثلاً دائماً لإيطاليا لدى الأمم المتحدة، فقد قدم تصور للسفير باعتباره «العامل المساعد الذي لا غنى عنه» - The Indispensible Catalyst. أما Hideo Kitahara الذي كان سفيراً لليابان في فرنسا وممثلاً دائماً

لها لدى المقر الأوروبي للأمم المتحدة فى جنيف، فقد ناقش «مكونات السفير الناجح» كما أورد اللورد Maclelse of Beoch سفير بريطانيا لدى الدنمارك وحاكم هونج كونج لمدة ١١ عاما «قائمة مختصرة للصفات الأساسية» للسفير.

أما الفصل الرابع فهو مأخوذ من كتاب هام بالنسبة لدبلوماسية العالم الثالث ودبلوماسيتها وخاصة فى تعاملهم مع العالم المتقدم وقد صدر تحت عنوان: Third World Diplomat in Dialogue with The First World كما أنه كتب من وجهة نظر دول العالم الثالث ووجهة نظر أوضاعها واحتياجاتها. أما كاتبه فهو السفير Robert Moore الذى عمل مندوبا ساميا لجيانا لدى كندا، ولتميز الكتاب المهني والنظري فقد نشره مركز أكاديمي محترم هو مركز بحوث التنمية الدولية فى أوتوا.

ويركز الفصل الذى اخترناه من هذا الكتاب: Preparing for Larger Purposes: The Selection and Training of Third World Diplomats على عنصرين رئيسيين بالنسبة لدبلوماسية العالم الثالث: اختيارهم، وتدريبهم، وهو بداية يتساءل عما تريده دول العالم الثالث والصغير من دبلوماسيتها، وبالتالي ما يجب أن يتوفر فيهم لكي يلبوا بكفاءة ما تتطلبه منهم وظيفتهم الدبلوماسية واحتياجات بلادهم واهتماماتها فى ميادين حيوية لنموها وتقدمها مثل نقل التكنولوجيا، والزراعة، والاقتصاد والتجارة، وانتقال البشر. وعلى هذا فإن الفصل يركز على أن ظروف دول العالم الثالث واحتياجاتها تفرض عليها أن تختار أكفأ العناصر لتمثيلها فى الخارج سواء كانوا سفراء أو مساعديهم، وهو لا يقتصر فى عناصر الخدمة التقليدية على أعضاء السلك الدبلوماسى من وزارات الخارجية وإنما على العناصر الفنية التى تختار من أجهزة أخرى متخصصة فى مجالات العلم، والزراعة، والطب، والثقافة.. إلخ.

واختيار هذه العناصر يتطلب معايير دقيقة للاختيار وعملية يمر فيها المرشح للخدمة الدبلوماسية باختبارات دقيقة لتبين جوانب شخصيته. ولذلك يحاول فى هذا الفصل تحديد معايير الاختيار تلك، كما أن بناء جهاز دبلوماسى فعال يتطلب برنامجا تدريبيا متماسكا يساهم فى بناء قدرات الدبلوماسيين وتنميتها بشكل مستمر، وفى هذا يتصور الفصل العناصر المنهجية اللازمة لمثل هذا البرنامج.

أما الفصل الخامس والأخير: The Practical Negotiator فهو مأخوذ من كتاب يحمل نفس العنوان وضعه أستاذان في العلاقات الدولية هما: William Zatzman & Moureen Beinar ويعالجان فيه بشكل منهجي هذه الأداة الرئيسية للدبلوماسية، ورغم أنهما لا يعملان بالدبلوماسية وليس لهما خلفية دبلوماسية، إلا أن الفصل عامر بالاستشهادات بقضايا دولية وإقليمية عولجت عن طريق التفاوض، والمقابلات مع دبلوماسيين وشخصيات اشتركت في مفاوضات دولية لها خطورتها. وبذلك يؤكد الفصل على أن الأصل كان ولا يزال هو أن يكون للسفراء ومساعدتهم دور رئيس في عملية التفاوض، و يناقش مكونات المفاوضات الجيد من الصبر، والثقة بالنفس، والإبداع، والقدرة على التحمل الجسدي والعقلي، كما يناقش متى تكون المفاوضات طريقا ملائما لتناول النزاعات، ويحلل أهم خصائص الموقف القابل للتفاوض، كما يتناول بالتحليل المرحلة التي تسبق التفاوض من حيث إنها مرحلة استكشاف استعداد الأطراف للتفاوض، والأساليب التي تستخدم في هذه المرحلة وما يجب التركيز عليه فيها وما يجب تفاديه خلالها.

وأخيرا أرجو أن أكون قد قدمت بهذه الفصول شيئا مفيدا لأبناء الدبلوماسية المصرية والعربية وخاصة أجيالها الجديدة التي تنتظرهم مهام أكثر تنوعا تتطلب مستوى دائم التجدد من القدرات الذهنية والاستعداد للنهوض بها بشكل كفؤ وفعال.

د. السيد أمين شلبي

القاهرة يناير ١٩٨٨